ملتقى الإمام القرضاوي

مع الأصحاب و التلاميذ

الشيخ القرضاوي واثـــره في الشباب

د. عصـــام العريـــان

الدوحة - قطر -فندق الريدزكالرتون

٢٩/٦-٢/٧/١٤٢٨هـ ـ ١٤-١٦/٧/٢٠٠٧م

مقدمـــة :

يُعد فضيلة الشيخ الدكتور/ يوسف القرضاوي اليوم أحد أبرز علماء المسلمين، ومن الفقهاء المعدودين، ورائد الوسطية والاعتدال، وصاحب مدرسة متميزة في الاجتهاد الفقهي الذي تحتاجه الأمة الإسلامية في وقتنا وزماننا المعاصر أشد الاحتياج.

وهذه جوانب تبرز تعدد ملامح شخصية القرضاوي، وقد كتب كثيرون حولها، وستظل بها ملامح تحتاج إلى مزيد من الإضاءة والكشف والإضافات. ولكنني في هذه الورقة السريعة أقدّم جانبا آخر لا يقل أهمية إن لم يزد عن تلك الجوانب المشرقة، ألا وهو أثر الشيخ العلامة القرضاوي في الشباب المسلم ودوره الكبير في ترشيد الصحوة الإسلامية المباركة التي انطلقت مع ما يُسمى جيل السبعينيات في مصر، ثم انطلقت إلى بلاد إسلامية أخرى كالجزائر، ثم امتدت بعد ثورة الاتصالات لتشمل كل بلاد العالم الإسلامي بل والغربي أيضا، ولعل أثر الشيخ في الغرب بدأ قبل ثورة الاتصالات كما سيتضح.

أشعر كما شعر كثيرون من جيلي بدينٍ كبير للشيخ القرضاوي؛ فقد أكد شخصيا في مكالمة هاتفية على ضرورة إعداد وتقديم هذا البحث، حتى ولو لم أستطع الحضور للمشاركة في المؤتمر المقام لمناقشة البحوث المختلفة حول جوانب وآثار فضيلة الشيخ، إنني أبديت سعادتي وموافقتي على الكتابة لسكرتيره الخاص، إلا أن حديثه معي كان له أثر بالغ في تحفيزي للكتابة.

قبل فترة حدثني فضيلة الشيخ ليدقق معلومة ما حول أول لقاء جمعنا وجها لوجه؛ فقد عرفت الشيخ من كتابه الأشهر "الحلال والحرام في الإسلام" وكتابه "الإيمان والحياة" قبل أن ألقاه، وكانت ذاكرته أقوى وأحدّ وتذكر بعض تفاصيل اللقاء الأول الذي كان في مخيم الإخوان المسلمين في موسم حج ١٩٧٥ ميلادية، وكنت طالبا في السنة الرابعة بكلية طب قصر العيني، جامعة القاهرة أؤدي فريضة الحج لأول مرة في حياتي مشتركا مع بعثة جامعة القاهرة، وذهبت إلى المخيم بمنى فكان اللقاء الأول وكان حديثا حول "لحية الشيخ"؛ لأنه ذهب في كتابه الحلال والحرام إلى عدم وجوب اللحية وتأكيد سنيتها فقط، وكنا نحن الشباب نتشدد وقتها في مسائل الهدي الظاهر والتمسك به في كل صغيرة وكبيرة، وسألته كما تذكر هو وذكرني: ها أنت ملتحٍ رغم أنك ذهبت في كتابك إلى عدم وجوبها؟ فنبهني إلى أن القول بعدم الوجوب وأنها سنة مؤكدة لا يعني تركها كسنة أو عدم الاهتمام بها؛ فكان درسا لي استفدت به في طلبي للعلم وفى سلوكياتي في حياتي وأسلوبي التربوي.

إلا أن أخي د.حلمي الجزار ذكرني بأن الشيخ زارنا في الصيف السابق لذلك عام ١٩٧٤م في المعسكر الإسلامي الثاني للجماعة الإسلامية في جامعة القاهرة ببذلته الإفرنجية، ويرتدي قميصا بنصف كم وبنطالا عاديا ولحية مهذبة وروح مرحة وشباب يتدفق (كان عمر الشيخ وقتها في الأربعينيات)، وألقى علينا محاضرة بمدرج كلية الحقوق حضرها آلاف الشباب من الجنسين عنوانها "دور الشباب المسلم في خدمة الإسلام"، وتعلمنا منها أن واجبنا نحو الإسلام يتلخص في ثلاث كلمات حفظناها وحاولنا تطبيقها في حياتنا كلها، وهي: العلم بالإسلام، العمل بالإسلام، العمل للإسلام.. أو الدعوة للإسلام.

كانت هذه المعسكرات تنعقد سنويا في إجازة الصيف، ويشارك فيها بضعة آلاف من الشباب المسلم ذكورا وإناثا لمدة أسبوعين يقيم معظمهم إقامة دائمة في مبنى المدينة الجامعية مقابل اشتراك مناسب، ويدرسون خلالها دراسات شرعية في القرآن وتجويده وتفسيره، والسنة وشروحها، والفقه وأصوله والسيرة ودروسها بخلاف محاضرات يومية صباحية ومسائية لكبار الدعاة والشيوخ وأساتذة الجامعات، وتخرج في هذه المعسكرات آلاف تشبعوا بحب الله وحب رسوله صلى الله عليه وسلم، والرغبة في العمل لدين الله على بصيرة ووفق منهج سلمي إصلاحي متدرج.

لم يكن الالتحاق بهذه المعسكرات الصيفية مقصورا على طلاب جامعة القاهرة بل حضرها وفود من كافة الجامعات المصرية نقلوا التجربة إلى جامعاتهم الإقليمية.

لا أتذكر عدد المرات التي حاضر فيها الشيخ القرضاوي في هذه المعسكرات، ولكنه بالقطع تنقل بين عدد منها لعل أهمها القاهرة والإسكندرية وأسيوط.

ومن خصائص الشيخ –حفظه الله– أنه يُعد لمحاضراته بصورة علمية ومنهجية، ويتميز بأسلوب إلقاء قوي ومؤثر، ويحرص على تلخيص فكرته في كلمات محددة وواضحة؛ بحيث تعلق بذاكرة الشباب، ثم أمر آخر أنه يركز على الجانب العملي والتطبيقي وليس مجرد طرح فكرة نظرية.

كانت هناك محاضرة أخرى له أثرت في أجيال متتالية بعنوان "جيل النصر المنشود.. مواصفاته وخصائصه".

لم يقتصر احتكاك الشيخ بالشباب في معسكراته الصيفية بل قدّمه الشباب إلى الجمهور العام الذي لم يكن يعرفه آنذاك بسبب بقائه للتدريس خارج مصر في قطر، كان ذلك من خلال دعوته لإلقاء خطبة العيد في ميدان عابدين بالقاهرة.

لقد بدأنا تنظيم صلاة العيدين في الخلاء إقتداءً بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم بدءا من ١٩٧٦ تقريبا، وكان ذلك بتكليف من مسئولي الإخوان بالإسكندرية التي سبقنا إخواننا الطلاب هناك بتنظيم صلاة العيد في إستاد الإسكندرية الجامعي ١٩٧٥، كانت هناك صلاة للعيد تنظمها جماعة أنصار السنة المحمدية بشارع "قولة" أمام المقر الرئيسي للجماعة السلفية الاتجاه، ويخطب بها أحد المسئولين بالجماعة، وكان لنا اعتراضات على خطبته؛ فتوجهنا إلى الإسكندرية لدعوة رئيس الجماعة الشيخ محمد علي عبد الرحيم لحضور أول صلاة ننظمها، وانتقلنا بها من الشارع الصغير "قولة" إلى ميدان عابدين شديد الاتساع، وبعد تلك الصلاة المشتركة انفردنا كشباب بتنظيم الصلاة كاملة، ودعونا خطباء ودعاة مشهورين لإلقاء خطبة العيد وإمامة الصلاة. كان أشهرهم المرحوم الشيخ محمد الغزالي، والدكتور يوسف القرضاوي.

ولضعف ذاكرتي فإنني أعود مرة أخرى إلى أخي د.حلمي الجزار الذي كان يتولى آنذاك موقع "أمير الجماعة الإسلامية" بجامعة القاهرة خلفا لي بعد سنتين في الموقع، ويؤكد أن أول خطبة ألقاها الشيخ كانت في عيد الأضحى عام ١٩٧٧، وأنه قدّمه بعد الصلاة ليلقي كلمة الجماعة الإسلامية، في إشارة واضحة لمنهجه في تشجيع الشباب وحفزهم للحديث والنشاط.

كان مئات الآلاف يصلون معنا في ميدان عابدين، ووصل العدد قبيل اغتيال السادات إلى أكثر من نصف مليون ضاق بهم ميدان عابدين على اتساعه؛ مما جعل المصلين يصلون في الشوارع الجانبية، ودفع ذلك المرحوم الرئيس السادات إلى التعليق على المشهد كله في خطبه الأخيرة، وبذلك ازداد حضور الشيخ وتأثيره، وانتقل من رحاب معسكرات ومدرجات الجامعات إلى الجمهور العريض الواسع؛ وهو ما دفع الكثيرين لاستضافته في ندوات ولقاءات بالمحافظات المختلفة؛ حيث انتشرت وقتها أحاديث أسبوعية ينظمها شباب الجامعات بالتنسيق وتحت إشراف الإخوان المسلمين الذين بدءوا بعقد "حديث الثلاثاء" أسبوعيا في مسجد الخلفاء الراشدين في ضاحية مصر الجديدة، وسرعان ما انتقلت الفكرة إلى بقية المحافظات؛ فكان لكل محافظة، وأحيانا مدينة كبرى مسجدها الذي تنظم به حديث الثلاثاء.

ظواهر صاحبت الصحوة الإسلاميـــة

للحديث عن أثر الشيخ القرضاوي في الشباب لا بد من الإشارة إلى أهم الظواهر التي كانت تشهدها مصر في السبعينيات، وانتقلت بعد ذلك إلى بقية البلاد العربية في الثمانينات، وبعد ذلك انتشرت في العالم الإسلامي بل والعالم كله، وما زلت لها تداعيات وثمار مرّة نحصدها حتى يومنا هذا رغم عدول القيادات التاريخية لتلك الأفكار عن نهجهم وفكرهم أهم هذه الظواهر هي:

١ –ظاهرة الغلو في التكفير:

وهذا هو المصطلح الذي صكّه الشيخ في محاضراته، ثم أخرجه في كتيب صغير بالغ الأهمية، وكنا نحن نسمي الظاهرة "بالتكفير" دون إضافات، وأطلقت الصحافة على تلك الجماعة اسم "التكفير والهجرة"، بينما كان الاسم الذي سمحوا به أنفسهم هو "جماعة المسلمين" كما كتب عبد الرحمن أبو الخير في كتابه.

يدل الاسم على حرص الشيخ على الدقة والخلفية الفقهية والأصولية في تحديد مدلول الكلمات؛ فالتكفير قائم وموجود؛ فمنكم مؤمن ومنكم كافر، ولكن الخطير هو "الغلو" فيه، والإفراط في إطلاق الحكم بعد التصدي لمسألة الحكم على الناس خروجا عن المنهج الذي خطه ورسمه مرشد الإخوان الثاني المرحوم المستشار حسن الهضيبي في كتابه الأشهر "دعاة لا قضاة"، ولقد كان للكتيب الصغير المركز "ظاهرة الغلو في التكفير" أثر أكبر من البحث الضافي المتعمق "دعاة لا قضاة" لسهولة العرض وعدم الخوض في الآراء الفقهية المتشعبة، وتوجهه إلى الجمهور والشباب، وليس إلى أعضاء جماعة الإخوان فقط، كما كان البحث الذي أعده الإخوان داخل السجون فضلا عن قيام صاحبه بشرحه في عدة محاضرات وندوات وإلقاء الضوء على ما يتضمنه والرد على الأسئلة التي تنشأ بعد قراءته.

٢ – ظاهرة العنف لدى الشباب المسلم:

وكان هذا العنف إما تطبيقا خاطئا لواجب "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، أو منهجا حركيا سعيا للتغيير والإصلاح عبر حرب العصابات التي اقتنع بها فصيل من الشباب، أو الإعداد لانقلاب عسكري يطيح بالسلطة الحاكمة مرة واحدة، وقد كان للشيخ أثر كبير في توضيح كافة القضايا المتعلقة بهذه الظاهرة.

فمن الناحية الفقهية أوضح الضوابط الشرعية لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن الناحية المنهجية الحركية شرح في محاضرات ثم في كتبه وبحوثه المنهج الصحيح للإصلاح

والتغيير استقاء من سنة سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم– وكتب كثيرا لترشيد سلوك الشباب مثل كتابه "من أجل صحوة راشدة.. تجدد الدين وتنهض بالدنيا".

وبحثه الآخر بعنوان "الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم"، الذي كان قد أعده لإلقائه في المؤتمر السنوي لرابطة الشباب المسلم في أمريكا الشمالية، وهذا دأب الشيخ أن يستجيب لحاجات الشباب ويلبي متطلبات الواقع.

٣ – ظاهرة الصحوة الإسلامية والإقبال على التدين ونزوع الكثير من الشباب إلى الجرأة على الفتيا والقول على الله والتصدي للاجتهاد بغير ضوابط:

وهنا كان للشيخ –حفظه الله– دور كبير في ترشيد الصحوة، ورسم الأولويات الدقيقة أمام الشباب، وضبط المفاهيم الشرعية، ووضع الراغبين في العلم الشرعي أمام مسئولياتهم، وإيضاح كيفية التعامل مع العلوم الشرعية ومصادرها الرئيسية؛ فكما كتب المرحوم الشيخ الغزالي –الذي كان أستاذا للقرضاوي، ورائدا سار على دربه، وكتب عنه كتابا قيما "الشيخ الغزالي كما عرفته"– "كيف نتعامل مع القرآن الكريم" كتب القرضاوي ما هو مكمل وأهم لشدة الحاجة إليه؛ ألا وهو كتابه القيم "كيف نتعامل مع السنة النبوية؟".

دافع الشيخ عن الضوابط العلمية للاجتهاد، وهو من أئمة الاجتهاد الفرعي، وكانت رسالته لنيل درجة "العالمية" –أو الدكتوراة– عن "فقه الزكاة"، تضمنت اجتهادات معاصرة كما تضمن سِفْره الكبير القيم "فتاوى معاصرة" الكثير من الاجتهادات التي تلبي حاجة المسلمين إبان صحوتهم إلى فتاوى تصحح لهم مسيرة حياتهم وفق متطلبات الشرع الحنيف، إلا أن الشيخ هو من أعلى الناس صوتا مطالبا بالاجتهاد الجماعي، وقد حاول تطبيق تلك الفكرة في "المجلس الأوربي للإفتاء والاجتهاد" الذي تخصص في تقديم الرؤية الشرعية والفتاوى للمسلمين المقيمين في أوربا وأمريكا، وتسببت اجتهادات قليلة في إثارة كم كبير من الجدل الفقهي الذي افتقده المسلمون طويلا، ولم يتعوده أبناء الصحوة من الشباب الطالبين للعلم الشرعي الذين اعتادوا الركون إلى الرأي الواحد أو النقل عن كتب السابقين دون التصدي للقضايا المعاصرة، وكان الحل الأسهل هو الهروب من مواجهة المشاكل. أما الشيخ ومدرسته التي أسسها فكانت تتصدى للمواجهة ووضع الحلول أمام جماهير الصحوة انطلاقا من المدرسة التي تربى فيها الشيخ، وانتسب لها طوال حياته، والتي تعمل وتجاهد من أجل بناء نهضة إسلامية في كافة المجالات على أساس الإسلام العظيم، وتجمع بين الأصالة والمعاصرة، وتأخذ من المعين الصافي الذي لا يختلف عليه أحد وهو القرآن العظيم والسنة النبوية الشريفة.

وقد تعرض الشيخ بسبب تصديه لهذا الشأن الخطير "الاجتهاد" لهجوم عنيف كما تعرض أستاذه الراحل "الغزالي" من أنصار الجمود والتقليد والهروب من مواجهة الحياة وتعقيداتها إلى كهوف العزلة والانسحاب، فلم يعبأ بذلك الهجوم بل استمر في عمله الدءوب راغبا فيما عند الله محتسبا ما يلقاه شعاره قول الحق تبارك وتعالى {وقولوا للناس حسنا}، وقوله تعالى {ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون} وقوله تعالى {ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم}.

٤- الظواهر السياسية وتقلباتها:

عاصر الشيخ تقلبات الحياة السياسية في مصر والعالم العربي والإسلامي، وكان له كبير الأثر في تنوير المسلمين عامة والشباب خاصة بأهم تلك الظواهر وما تنقله من تأثيرات عالمية على بلادنا.
كان من أهم ما تأثرنا به وساهم بقوة في انحيازنا إلى الفكرة الإسلامية كتابات الشيخ التي قرأناها قبل أن نراها، ومن أهمها كتاباه الشهيران:

- الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا.
- والحل الإسلامي.

جاءت هذه الكتب لترد على الحملة الشديدة التي تبنتها النظم الثورية الشمولية الاشتراكية والتي واكب حملتها ضد الإخوان المسلمين في مصر حملة أشد على المفاهيم الإسلامية والمشروع الإسلامي للنهضة والذي حمل لواءه الإخوان المسلمون، وقد تحولت بعد ذلك إلى سلسلة من الكتب تشرح أبعاد الحل الإسلامي.
وعندما ترسخت الصحوة واستقرت في نفوس الشعوب الإسلامية ظهرت حاجة ملحة للإجابة عن أسئلة أخرى، فقد أيدت الجماهير الحل الإسلامي ولكن ارتبكت الساحة الإسلامية حول وسائل التغيير والموقف من الحلول الديمقراطية والمشاركة في الانتخابات العامة المحلية والبرلمانية والطلابية وغيرها ثم التعددية الحزبية والمشاركة في حكومات علمانية... إلخ.
كان دور الشيخ القرضاوي وهو الأبرز بين أدوار كثير لعبها دعاة ومربون وقادة إسلاميون مثل الغزالي -رحمه الله- والتلمساني والهضيبي الابن (محمد المأمون) وراشد الغنوشي وغيرهم، وما زالت قولته الشهيرة "الأحزاب في السياسة كالمذاهب في الفقه" تتردد حتى يومنا هذا كدليل عمل للحركة الإسلامية التي تشارك بقوة في الحياة السياسية في كل بلاد العالم الإسلامي.
وكتب الشيخ كتابه الموجز "فقه الدولة في الإسلام" الذي جمع فيه حصيلة آرائه واجتهاداته حول أهم المشكلات التي تواجه العقل الإسلامي في المجال السياسي ومجال إدارة شئون الدولة ونظم الحكم.

كما لم يهمل الشيخ ظواهر أخرى لها تأثيرها على المجتمعات الإسلامية خاصة الشباب مثل العولمة فكتب عن "المسلمون والعولمة".

هذا التنوع الكبير في القضايا التي يتصدى لها الشيخ لم يفقده أبدا تميزه وتفوقه؛ فهو يكتب ويخطب ويحاضر بعقل الفقيه وقلم الأديب وروح الشاعر وحماس الثائر، ولم يطفئ توهجه حضوره المستمر على شاشات الفضائيات في العقد الأخير، بل لم يقلل من تأثيره إن لم يزدد تأثيرا برنامجه الأسبوعي الثابت "الشريعة والحياة" على قناة الجزيرة واسعة الانتشار، وإن كان محبوه وعارفو فضله ألحوا عليه بالإقلال من الظهور الأسبوعي والتفرغ لما هو أهم..

٥- ظاهرة الوجود الإسلامي في الغرب:

لقد شكلت ظاهرة الوجود الإسلامي في الغرب من المبعوثين الدارسين في أوربا وأمريكا ثم العمال الذين تدفقوا بكثافة خاصة من بلاد المغرب العربي وبقاء أعداد ضخمة بدءا من السبعينيات وحتى الآن، وأصبحت الجاليات المسلمة في أمريكا وأوربا رقما صعبا في السياسات الأمريكية والأوربية في كافة المجالات الثقافية والسياسية والاجتماعية بل والاقتصادية.

وكان للدكتور القرضاوي أكبر الأثر في الاحتكاك بهذه الجاليات منذ نشأة المراكز الإسلامية وبداية تكوين الجمعيات الطلابية والمؤسسات الإسلامية، ولعل عدم إتقان الشيخ لإحدى اللغات الأجنبية حرم المسلمين من غير العرب بل وبقية مواطني أوربا وأمريكا من المتعطشين لمعرفة الإسلام من الاستفادة من جهوده وعلمه؛ حيث لا يستطيع مخاطبتهم بلغة يفهمونها مباشرة، ولا تغني الترجمة عن الحوار المباشر؛ فقد تم ترجمة الكثير من كتبه إلى عدة لغات، ولعل انتشار الفكر المغالي في الجاليات الآسيوية الآن يدلل على الخسارة التي لحقت هذه الجاليات من عدم التواصل المباشر مع الشيخ.

تطور دور الشيخ من مجرد إلقاء المحاضرات وحضور المؤتمرات السنوية إلى إنشاء "المجلس الأوربي للإفتاء" الذي يترأسه وساهم في تأسيسه ليلبي حاجات هذه الجاليات في القضايا التي تحتاج إلى اجتهاد وإفتاء جماعي، وبذلك أصبحنا أمام مجمع فقهي من معظم المذاهب ومن كل البلاد تقريبا، وقد كتب الشيخ كتابه "من أجل صحوة إسلامية راشدة" تلبية لدعوة من رابطة الشباب المسلم العربي بأمريكا الشمالية لمؤتمرها السنوي عام ١٩٨٩، ولعل الكثير من كتاباته كان تلبية لحاجة الشباب في كل مكان.

الوسائل والآليات التي استخدمها الشيخ القرضاوي

يتميز الدكتور القرضاوي عن غيره من العلماء والمربين أنه يواكب العصر، ويستخدم كافة الوسائل والأساليب التي تناسب تطور الحياة، وإذا تتبعنا الوسائل التي استخدمها الشيخ منذ بداية التحاقه بركب الدعوة المباركة دعوة الإخوان حتى اليوم سنجد ظاهرة زادت من أثره في الشباب، وهي استخدام الآليات التي تؤثر فيهم، وتناسب عقولهم واهتماماتهم وتصل إليهم؛ فعندما كانت المحاضرة والمقالة هي المؤثرة اقتصر الشيخ عليها، وعندما أصبح الكتاب له الأثر الأكبر ساهم في المكتبة الإسلامية بعشرات الكتب، واليوم عندما باتت الفضائيات ومواقع الإنترنت (الشبكة العالمية العنكبوتية للمعلومات) هي ظاهرة العصر وملتقى الشباب كان هو نجمها الأبرز وصاحب التأثير الأعظم دون أن يهمل ما اعتاده من وسائل ضعف أثرها مع الزمن؛ فما زال يخطب الجمعة، ويحاضر في الندوات، ويؤلف الكتب بل مزج بين هذه الوسائل جميعها.

هذا التنوع في الوسائل والآليات، وهذه المرونة المستجيبة لحاجات العصر وهذا الاقتراب من الشباب وطريقتهم في التواصل، ومع الجمهور وتقلباته يمثل أحد معالم شخصية الشيخ القرضاوي ومدرسته: مدرسة الوسطية والاعتدال، مدرسة الإخوان المسلمين التي تعلم فيها من حسن البنا الذي قال في رسالة (دعوتنا) في أوائل ثلاثينيات القرن الميلادي والهجري المنصرم مبينا أن الدعاة اليوم غير دعاة الأمس، ووسائلهم اليوم غير وسائل الأمس: "والدعاة اليوم غيرهم بالأمس؛ فهم مثقفون مجهزون مدربون إخصائيون –ولا سيما في البلاد الغربية– حيث تختص بكل فكرة كتيبة مدربة توضح غامضها وتكشف عن محاسنها وتبتكر لها وسائل النشر وطرائق الدعاية، وتتلمس لها في نفوس الناس أيسر السبل وأهونها وأقربها إلى الإقناع والاتباع، ووسائل الدعاية الآن غيرها بالأمس كذلك؛ فقد كانت دعاية الأمس كلمة تلقى في خطبته أو اجتماع أو كلمة تكتب في رسالة أو خطابة أما الآن (منذ ثلاثة أرباع القرن) فنشرات ومجلات وجرائد ورسالات ومسارح (وخيالات) ومذياع، وقد ذلل كله سبل الوصول إلى قلوب الناس جميعهم، نساء ورجالا في بيوتهم ومتاجرهم ومصانعهم ومزارعهم".

ثم يختم الإمام الشهيد كلامه الثمين المؤثر بقوله: "لهذا كان من واجب أهل الدعوة أن يحسنوا تلك الوسائل جميعا حتى يأتي عملهم بثمرته المطلوبة"، ولعل أول المستجيبين لهذه النصيحة الغالية الثمينة كان القرضاوي.

١ – الخطابة:

كانت الخطابة وما زالت أقوى وسائل الشيخ تأثيرا؛ فقد بدأ تأثيره في الشباب بخطاباته في محافل الإخوان المسلمين وفي خطب الجمعة ثم محاضرا في المعسكرات والندوات والمؤتمرات.

كان الشيخ في خطب العيدين أكثر الدعاة تأثيرا في الشباب رغم موسمية الحديث، إلا أنه كان حريصا على أن تتضمن خطبه وعظا وفقها وتربية وتوعية.

يتحدث متدفقا بلغة عربية سليمة فصيحة يستشهد بأشعار وأقوال مأثورة تلخص الفكرة التي يريد إيصالها؛ فلا يكتفي بهز المشاعر هزا بل ينير العقول بفكرته المؤيدة بالأدلة والبراهين.

وما زال الشيخ حريصا رغم السن والمرض على خطبة الجمعة مواظبا عليها، واليوم تنقل الفضائيات والمواقع الإلكترونية خطب الجمع إلى مشارق الأرض ومغاربها، ورغم أن التأثير العاطفي يقل بسبب بعد المسافات فإن الأفكار تظل قادرة على فعلها في العقول والنفوس رغم انعدام اللقاء المباشر.

٢ – الكتابة:

كان أول كتاب اقتنيته من كتب الشيخ القرضاوي وهو سبب شهرته التي طبقت الآفاق وما زال من أفضل كتبه وأوسعها انتشارا رغم غزارة إنتاج الشيخ بعد ذلك هو كتاب "الحلال والحرام في الإسلام"، وقد اقتنيته عام ١٩٧٤ طبعة "دار الاعتصام" التي ثار بسببها جدل شديد، وغضب الشيخ من دار النشر غضبا شديدا يعكس أحد أهم معالم شخصيته، كان السبب هو قيام الناشر بإلحاق مذكرة تعترض على بعض آراء الشيخ الفقهية؛ مما عكس رؤية متشددة تخالف منهجه المعتدل الذي كان من أفضل فصول الكتاب وهي الباب الأول الذي يؤصل فيه لمدرسته الفقهية وطريقته في التوفيق والترجيح بين آراء المذاهب وأقوال العلماء قبل أن ينتقل في مرحلة أخرى من حياته إلى الاجتهاد الفردي بجانب الاجتهاد الجماعي، كان ذلك عام ١٩٧٤ في الطبعة الثامنة للكتاب ويعكس هذا الجدل أحد الفروق بين عقلية الشيخ الفقهية والفكرية، والعقلانية التي كانت سائدة في هذه الفترة الهامة من فترات التحول في مسيرة الحركة الإسلامية، ويتعرض فيها الشباب إلى مؤثرات متعددة ومتعاكسة أحيانا أو متضاربة.

النظر العميق إلى القضايا التي تضمنها تعليق الناشر والمقدمة التي قدم بها له من الأهمية بمكان؛ لأنها تبين إجابة سؤال البحث والورقة: لماذا كان الشيخ القرضاوي من أكثر الدعاة والعلماء والفقهاء تأثيرا في الشباب؟.

قال الناشر مبررا تصرفه الذي وصفه القرضاوي بعد ذلك بالتجاوز وعدم الأمانة ومنعه من نشر كتبه بتلك الدار: "إنه لزاما عليه –أي يعد من الواجبات الملزمة– أن يضع بين يدي القارئ شتى الآراء في المسائل المختلف فيها لبيان ما أمر الله به من أمور الدين"، وكأن الشيخ لم يعرض في كتابه لكل الآراء، ثم اختار منها ما يراه مناسبا للعصر، وذهبوا إلى أن الشيخ اعتمد واستند في كثير من آرائه إلى أقوال الإمام ابن حزم الظاهري الذي نقلوا عن الإمام ابن كثير المحدث والمفسر قدحا شديدا وذما لمنهجه في الاجتهاد.

وبالنظر إلى القضايا الأربع عشرة التي جرى عليها التعليق سنجد أنها تتعلق بدور المرأة في المجتمع وشئون الأسرة (٨ قضايا)، وأمران يظن المعلق أن الشيخ خانه التعبير أو افتقد السند لنقله، وأمران يتعلقان بالمجتمع مثل رأي ابن حزم في مقاتلة مانعي الفضل من الطعام، والأخير كان حول ترتيب آيات تحريم الخمر، وبذلك يتضح أن غالبية المسائل كانت تتعلق بالمجتمع والأسرة والمرأة، وقد كان الشيخ مثل أستاذه المرحوم الشيخ الغزالي من أعلى الأصوات نصرة للمرأة وتخفيفا من القيود التي كبلها بها بعض الفقهاء دون استناد صحيح إلى صريح الشرع أو صريح السنة، وقد سار على دربهما بعدهما من اهتم بذلك الأمر مثل المرحوم الأستاذ محمد عبد الحليم أبو شقة صاحب السفر الهام الضخم "تحرير المرأة في عصر الرسالة"، والذي قدم له الشيخان وقرظاه تقريظا شديدا، وكالدكتور محمد هيثم الخياط في آخر كتبه "المرأة المسلمة وقضايا العصر".

وقد كانت الآراء المتشددة في قضايا المرأة هي السائدة في أوساط المتدينين، وما زال تأثيرها شديدا إلى يومنا هذا، وأذكر أن الشيخ اعترض على الفصل التام بين الشباب والشابات في المحاضرات الصيفية بالمعسكرات؛ مما يحرم الفتيات من حضور دروس العلم أو يرهق الضيف بإعادة المحاضرة مرة أخرى، أو يتم تخصيص حديث معين للناس مما يحرمهم من المشاركة في الهموم العامة التي يخاطب بها الشباب من الرجال، فنصح بأن يشاركن في الأنشطة العامة ويحضرن المحاضرات العامة، أما ما يخصهن أو يحتاج إلى تعليم مباشر مثل تجويد القرآن فلا بأس أن يتم بصورة خاصة لهن.

من الكتب التي درسناها وأسست طريقة خاصة للتفكير ومنهجية في تناول القضايا المتصلة بالثقافة الإسلامية كتابان ما زلت أرجع إليهما كثيرا وهما "الإيمان والحياة" و"الخصائص العامة للإسلام".

نستطيع تقسيم كتب الشيخ إلى أقسام متعلقة بالمراحل التي مرت بها حياته وتأثيره وتأثره بواقع الشباب وحاجاتهم، وهذه خاصية من خصائص الشيخ مثل أستاذه الغزالي، فلم يكن يؤثر فقط

بحديثه أو كتاباته بل كان يتفاعل مع القضايا التي يثيرها الشباب، وتلك التي تحتاجها الأمة ويتطور ما يعرضه مع الحاجات المستجدة.

هناك كتب شكلت "البنية الأساسية" لفكر الشيخ، وما زالت قادرة على العطاء، وهي كتاباته الأولى مثل "الإيمان والحياة"، و"الحلال والحرام في الإسلام"، و"الخصائص العامة للإسلام"، و"العبادة في الإسلام"، و"فقه الزكاة"، ومعهما سلسلة "حتمية الحل الإسلامي" التي شكل كتابه "الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا؟" و"الحل الإسلامي.. فريضة وضرورة".

وهناك كتب شكلت استجابة لحاجات الحركة الإسلامية مثل: "الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف", و"أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة"، و"الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي"، و"من أجل صحوة إسلامية راشدة"، و"الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم".

وهناك كتب عن كبرى الحركات الإسلامية "الإخوان المسلمون" مثل: "التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا"، "الإخوان المسلمون.. سبعون عاما من الجهاد والدعوة"، وهو تأريخ مختصر للجماعة التي قضى الشيخ فيها حياته تقريبا عاملا مجتهدا ناصحا، وهناك كتب بحوثا وحلولا لقضايا تشغل الحركة الإسلامية مثل "غير المسلمين في المجتمع الإسلامي", و"ظاهرة الغلو في التكفير"، و"الوقت في حياة المسلم"، و"كيف نتعامل مع السنة النبوية؟"، و"الفتوى بين الانضباط والتسيب".

كما أن هناك بحوثا فقهية وكتبا للفتاوى بعد "الحلال والحرام" مثل "فتاوى معاصرة"، و"تيسير الفقه"، و"فقه الصيام"، و"بيع المرابحة للآمر بالشراء كما تجريه المصارف الإسلامية"، و"قضايا معاصرة على بساط البحث"، و"فوائد البنوك هي الربا المحرم".

وقد زادت كتب الشيخ على الستين كتابا، وبارك الله فيها، فتمت ترجمتها إلى عدة لغات أجنبية، كما أنه كتب ديوانا واحدا "نفحات ولفحات"، ولم يكتب عن أشخاص إلا عن أستاذه "الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه".

ليس هدفي هنا أن أستقصي كل كتب الشيخ أو أصنفها إلى مجموعات، لكني أردت بهذه اللمحة الموجزة أن أبين أن الشيخ لم يكن يكتب مجرد بحوث علمية مجردة أو لمجرد الكتابة وتسويد صفحات الكتب، لكنه كان يكتب ليؤثر ويربي ويوجه ويصحح، وكانت كتاباته كأستاذ وعميد لكلية الشريعة بقطر ليست مجرد كتابات علمية جافة بل تنبض بالحياة وتواكب المتغيرات وترشد الشباب.

٣ – المعايشة مع الشباب:

لقد عرفت الشيخ وعرفناه كجيل منذ أكثر من ثلاثين سنة، ولم يكن تأثيره فينا بسبب خطبه وكتبه فقط؛ بل اللقاء المباشر معه والمعايشة لهما أكبر الأثر في نفوس المجموعة التي تولت قيادة الشباب المسلم بالجامعات المصرية والجاليات الإسلامية بالغرب والتجمعات والجمعيات الإسلامية في مدن وقرى مصر؛ فللقدوة أثر كبير.

لقد بات الشيخ ليلة معنا إبان السبعينيات وهو في عنفوان اكتهاله ورجولته في حجرتنا الشهيرة ٢٥ج، بالمبنى الثاني بالمدينة الجامعية لطلاب جامعة القاهرة، وهى الحجرة التي كنت أسكنها في مرحلة الطلب والدراسة الأخيرة في كلية طب القصر العيني وسكن معي فيها أخي د. حلمي الجزار الذي تخرج بعدى بدفعتين، وكانت مقرا لنشاط بلغ مداه من الإسكندرية إلى أسوان، كما حضر عدة مناسبات للشباب، كما كان قدوته الشيخ الغزالي رحمه الله الذي أصر على ركوب سيارة عرس أخي حلمي معه وعروسه للذهاب إلى بلدته سرس الليان بمحافظة المنوفية.

كان الشيخ أثناء إجازته التي بدأ يقضيها في مصر يلقانا لساعات طوال في شقته أولا بشبرا المتواضعة، ثم في مدينة نصر، نتحاور حول هموم الصحوة ومشاكل الشباب وخطط المستقبل وجدول زياراته ومحاضراته.

في السبعينات كان لحضور المرحوم الشيخ الشعراوي في معسكرنا بجامعة القاهرة أكبر الأثر في الشباب، وفى الثمانينيات كانت للندوة التي أدرتها في نقابة الأطباء بمصر بين الشيخ الغزالي والشيخ القرضاوي في الجانب الإسلامي، ود.فؤاد زكريا وغاب عنها فرج فودة أثر غير محدود؛ حيث دارت حول "العلمانية في مواجهة الإسلام".

وكان للندوة التي أدارها د. سمير سرحان بين المستشار الضهيبي رحمه الله وفرج فودة في معرض الكتاب حول الدولة الدينية والدولة المدنية نفس الأثر.

لذلك كان لمعايشة القرضاوي مع الشباب أكبر أثر؛ لأنه أبعد من التأثير البعيد بالكلام والحديث والخطابة إلى الحوار والإجابة على الأسئلة والاستفسارات، جال الشيخ في معظم مدن وجامعات مصر حينما كانت حرية الحركة مسموحا بها، وعندما كانت صحته وظروفه تسمح له بذلك من الإسكندرية إلى سوهاج بصعيد مصر. لم يكن الشيخ وحده عندما زارنا؛ بل كان بصحبته ولده "عبد الرحمن" الذي ورث عنه روحه الشاعرية، فأصبح شاعرا مطبوعا، وهذا يدل أيضا على حرص الشيخ على إضفاء روح أسرية على معايشته للشباب، كما يدل على حرصه على ولده وتربيته.

٤ – الوسائل الحديثة: الفضائيات والإنترنت:

كان الشيخ أسبق الجميع إلى الحديث الدوري في فضائية "الجزيرة" وغيرها من القنوات الفضائية، وكان لبرنامجه الأسبوعي "الشريعة والحياة" تأثير هائل في الشباب خاصة، ومع أن بعض الشباب من الاتجاهات المغالية تعمدوا التشويش عليه بأسئلتهم وانتقادهم إلا أنه استطاع من خلال الحلقات أن يكوّن عقلية وسطية متسامحة في مواجهة الإفراط والتفريط، أو التساهل والتشديد.

كما بذل الشيخ جهدا هائلا في إطلاق موقع "إسلام أون لاين.نت" الذي تحول إلى شبكة واسعة لنشر الثقافة الإسلامية ومتابعة أخبار العالم الإسلامي، وأنشأ الشيخ لنفسه موقعا شخصيا كان من أسبق المواقع الشخصية ليتعرف الجميع على كتبه وخطبه وبرامجه وأحاديثه ويجيب من خلاله على الفتاوى والأسئلة.

٥ – المشاركة في الندوات والمؤتمرات العالمية : فى مختلف بلاد الدنيا، ولا أدرى هل قام الشيخ بإحصاء البلاد التي زارها والمحاضرات التي ألقاها والبحوث التي أعدها ولم تنشر في كتبه.

٦ – عضوية عدد كبير من المجامع الفقهية: وتأسيس ما يحتاجه المسلمون منها مثل "المجلس الأوربي للإفتاء" و"اتحاد علماء المسلمين".

٧– المشاركة في الهيئات الإغاثية الخيرية : مثل "الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت " وغيرها.

٨– تشجيع الشباب : ودفعهم للنشاط العلمي والحركي والانحياز إليهم باستمرار والإشادة بجهودهم وأعمالهم.

خاتمـــة

أمد الله في عمر الشيخ القرضاوي، ومتعه بالصحة والعافية ونفعنا به. لقد كان لمسيرة حياته منذ باكورة الشباب أثر كبير في أقرانه من الشباب، فرضتها وما زالت روحه الشابة وحيويته المتدفقة، تفعل نفس الأثر في جموع الشباب إلى وقتنا هذا.

جزى الله الشيخ عنا خير الجزاء، ووفقه تعالى لإنفاق ما تبقى من العمر في كل ما يفيد الأجيال والصحوة الإسلامية التي انتقلت من مرحلة الانتشار والذيوع والدفاع والهجوم إلى مرحلة المسئولية والاختبار لأفكارها وبرامجها، وما أدقها من مرحلة، وما أصعبها من تبعات، وما أشقه من اختبار.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

كتبه

عصام العريان

الجيزة – الهرم

انتهى في صباح الإثنين ٢٠٠٧/٥/٢٨م

الموافق ١١ جمادى الأولى ١٤٢٨هـ